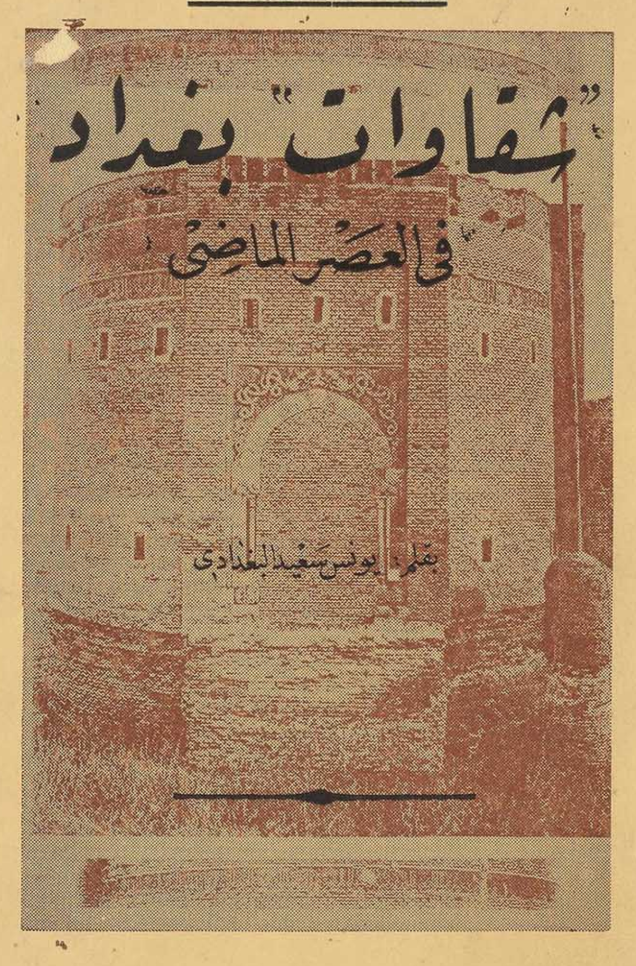
فولكلور بغداد



منشورات

مكتبة النهضة . بغداد

شقاوات بغداد

الطبعة الاولى
١٩٦٢

مطبعة أسعد ـ بغداد

"شقاوات" بغداد

في العصر الماضي

فدى لك يا بغداد كل مدينـــة
من الارض حتى خطتي ودياريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها
وسيّرت خيلي بينها وركابيا
فلم ار فيها مثل بغداد منزلا
ولم ار فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل اهليها أرق شمائلاً
واعذب الفاظا واحلى معانيـا

سعد بن محمد بن علي الهمداني

بقلم: يونس سعيد البغدادي

منشورات

مكتبة النهضة . بغداد

الاهــــداء

الى والـــدي الـــذي ادبني فأحسن تأديبـــي
واليها اينما ازمعت ، حيث لازلت في هواهـا شـــقيا !

بسمك اللهم ولك المجد

كنت قد كتبت في بعض الاعداد الصادرة سنه ١٩٥٧ من مجله (قرندل) المحتجبة فصولا عن سجايا البغداديين وشمائلهم ، فلما احتجبت (قرندل) عاودت ذلك في الاعداد الاولى من جريدة (العهد الجديد) الغراء • واذكر بكل اعتزاز ان تلك الفصول كانت قد لقت هوى من من نفوس القراء •• غير انني ولظروف خاصه الم بي ، انقطعت عن الكتابة ، فلما ازف موعد المهرجان ، انطلقت الم شعث أوراقي ، فما هزني منها غير هذا الذي جمعته بين غلافي هذا الكراس •• ذلك لانني بحكم كوني (ابن طرف) قد افنت الصبا ، والقسم الاكبر مما تلا الصبا ، في منطقة (الفضل) ، فهي محلتي التي افتخر بالانتساب اليها ، ولهذا فقد لذّ لي ان اكتب في هذا ، ولقد كانت هذه المحلة ـ ولا تزال ـ المنبع الثر الدي لاينضب من أفانين الادب الشعبي بما يواكبها من حياة بغدادية صميمة لم تشبها شائبة رغم تقلبات الايام •• ولاني بعد هذا عايشت (الاشقاء) ووقفت على سجاياهم وشمائلهم رؤية وسماعا ، فاحببتهم ، وما كان حبي ذلك الا لانني وجدت ان ظروف الحياة المرة ، وتردي الحالة الاقتصاديه في الايام الاخيرة من الحكم العثماني

كانتا من جملة الاسباب المباشرة في ظهور الاشقاء ، وهذا هو الذي حملني على اخراج هذا الكراس .

وانني اذ أقدم هذا الكراس اكون سعيدا جدا لو تقبلته مني بغداد وهي عاصمة اروع الحضارات هدية متواضعة في عيدها الالفي المجد .

يونس

الفتوة العربيـة

● ●

قبل ان نخوض في حديث الشـــقاوة والاشقاء ، ولعلاقـــه ما سنقوله عنهـــم بـ (الفتوة العربية) والاسباب التي اوجدت من اجلها فلنتحدث عن الفتوة أولا .. لانني أرى ان حديثنا في ذلك هو المفتاح الذي سنفتح به باب الطلسم ، ونرسم من خلال فتحتـه وجوه تلكم الفتيه التي استجابت لنداء التـاريخ في بعض ظروفـــه الدقيقه ، ولان (الفتوة) نفسها قد صنعت شيئاً من هذا التاريخ حين ألمت به بعض ظروفه هذه .. ويكفي الفتوة اجلالاً انهـــا كانت مظهرا رائعا من مظاهر حياة أسلافنا الشعبية .

فلقد كان العرب منذ جاهليتهم الاولى حتى يومنا هذا يطلقون على كل من تحلى بالشجاعة الادبية واداء الامانه ، وقرى الضيف ، وحماية الجار ، وغير ذلك من الصفات التي تبرز مكارم الاخـلاق كلمة (فتى) وقد قال في ذلك طرفة بن العبد

اذا القوم قالوا من فتى خلت انني عنيت فلم أكسل ولم أتبلـد

وتطلق هذه الـــكلمة كذلك على الفتى الذي يتحلى بالصبر والتبصر وتحكم الضمير فاشتقت منها كلمة (فتا) التي تبين المشكل

من الاحكام ، فلما جاء الاسلام أقر الفتوة وفي ذلك يقول هادينا الرسول الاعظم (ص) ، انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق . كما جاء في الحديث ان قوما تفاتوا اليه أي تحاكموا اليه وارتفعوا اليه في الفتيا .. وهكذا كانت الفتوة تشكل أساسا متينا للرجولة الصادقة كل مع نفسه حتى عصر الرشيد ، حث برز في المجتمع البغدادي آنذاك من لبى نداء التاريخ بشخص الامام جعفر الصادق (ع) الذي نظمها ودعا لها وتولى ادارتها ورئاسة شرفها .. واشترط للانتماء اليها كل الشروط التي ألمعنا اليها في مكارم الأخلاق ، ولم يجعل لاعمار الفتيان زمانا محدودا ، فمن الخامسة عشر الى خاتمة المطاف .. وان السبب الذي جعله أن يصدر هذه الدعوة ويتولى حمايتها هو اندفاع الخلفاء والحكام بالظلم والطغيان ، وسرعان مالبى دعوته الناس ومنهم العلماء والادباء وصفوة المجتمع البغداديآنذاك. وقد لقي (ع) عنتا من الرشيد وكذلك نجله الامام موسى الكاظم (ع)

ومن رجالات العصر العباسي الذين دعوا الى الفتوة واشتهروا في قادتها عندما داهمت بغداد الفتنه ، بسبب الحرب بين الامين والمأمون سهل بن سلامة الانصاري الذي علق المصحف الشريف في عنقه وخرج يعض الناس ويدعوهم الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وبسنة رسوله ، فبايعه على ذلك جمع غفير من أهل بغداد وأخذهم سهل بن سلامة بقيادته لقتال الشطار الذين أخذوا يمارسون السلب والنهب في اهتبال فرصة تلكالحرب

المشؤومة .

ومن زعمائها أيضا الامام أحمد بن حنبل (رض) وقد تجلى ذلك في موقفه المشرف من بدعـــه (خلق القرآن) .. فقد كان المأمون مشغولا في حرب الروم .. وان الذين كانوا يديرون دفـه الحكم في بغداد هم الفرس ، فابتـــدعوا خلق القرآن تمشياً مع سياستهم في اضعاف العقيدة في النفوس واحداث البلبلة في الرؤوس، فبلغ ذلك المأمون فكتب يطلب امتحان العلماء بخلق القرآن فأكره كثـــير على الجواب الا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فنفيا الى طرسوس غير ان ابن نوح مات في بعض الطريق ورجع الامام أحمد الى بغداد بعد أن صفح عنه المأمون ..

وازدهرت الفتوة أيما ازدهار في زمن الخليفة الناصــــر لدين الله ، حيث وضع لها نظـــاما خاصا ، وعين لفتيانها المراتب ، وألبسهم سراويل الفتوة البيضـــاء ، ولا يزال يلبســـها أبنـــاء البلد في الاحياء الشعبية ، وعين لهم رياضتهم التي يمارسونها وهي الفروسية واللعب بالكرة والصولجان والرمي بالبندق ، ففتن بهـــا البغداديون ، وتسارعوا للانتماء اليها ودخل فيهـــا العلماء والادباء وأكابر القوم ، ثم الملوك حيث ألبسوا الملك العادل ومن بعده أولاده السراويل البيضاء ولبسها أيضا الملك شهاب الدين صاحب غزنتـــه والهنـــد من قبل الخليفة الناصر ، ثم أناط الخليفة قادتهـــا الى

عبدالجبار بن يوسف البغدادي[1] ولقبه بلقب (شيخ الفتوة وحامل لوائها للناصر الخليفة العباسي) .

ومن زعمائها أيضا أقطاب الصوفة ومشايخها الاجلـــة من الاشراف والعلماء وفي طليعتهم الشيخ عبدالقادر الكيلاني والشيخ الجنيد البغدادي ، وعبدالرحمن بن أبي الحسن بن محمد الجوزي، وكان رجلا عالما جليلا يعظ الناس ويدفع بهم الى طلاب الجنة في مقاتلة الشطار وأهل الفتنة .

ولما استفحل أمر الاعاجم من الفرس والمغول وغيرهم هرب كثير من فتيان بغداد الى الشام ومصر فانتقلت بهم الفتوة الى هذين القطرين ، حتى ضمرت في بغـداد ومسخت على النحو الذي كان معروفا في أواخر العهد العثماني ، وهو العصر الذي نعيشه الساعة مع هذا الكلام ، وسنرى ان كثيرا من صفات الفتوة قد بقيت عالقة في نفوس البغداديين ومن ضمنهم من لبوا نداء التاريخ في احـدى ظروفه الدقيقة وهم الاشقياء ..

---

(١) **عبدالجبار بن يوسف بن صالح البغدادي شيخ الفتوة وربيبها** ودرة تاجها وحامل لوائهـــا بالمرؤة والعصــــبية وانفـــرد **بشرف النفس والابوة وانقطع الى عبادة الله تعالى بموضـــع اتخذه لنفسه وبناه فاستدعاه الامام الناصر لدين‌الله وتفتى اليه ولبس منه خرج عبدالجبار في هذه السنة حاجا فتوفى بالمعلى ودفـــن به في ذى الحجـــة ـ شمس‌الدين الذهبي في وفيات ٥٨٣**

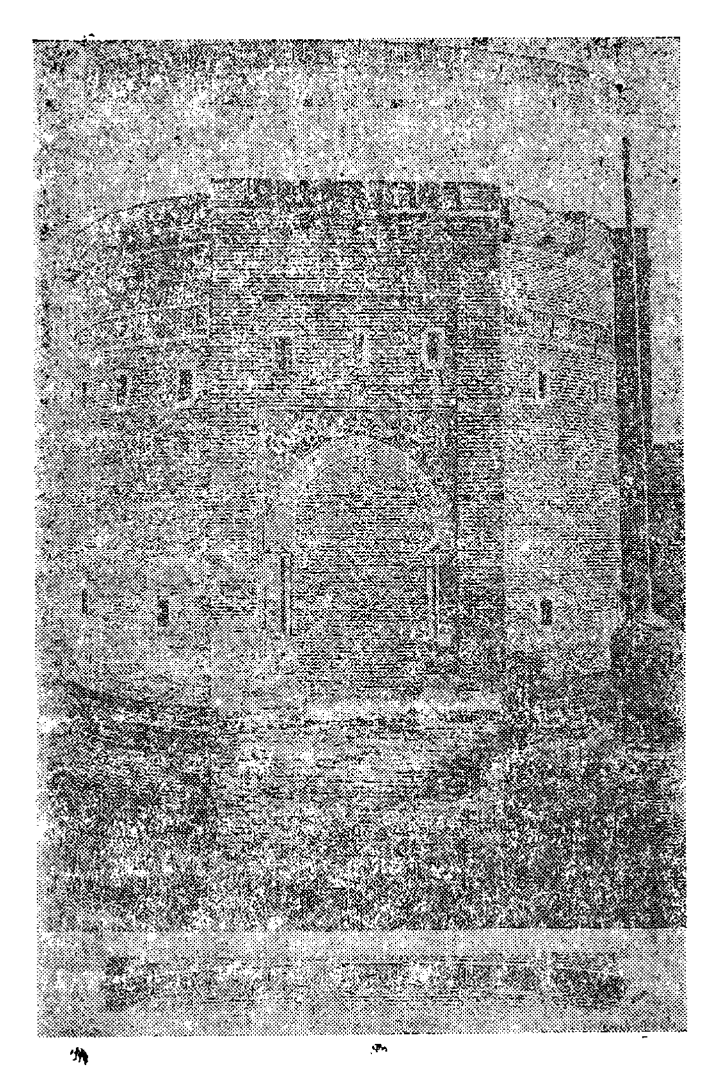
تعريف بالطلسم

● ●

الطلسم لغة هو اللغز المستعصي حله على الفهم •• ولكنه في موضوع بحثنا هذا ، اسم الموضع الذي كان يلوذ به الفارون من وجه السلطات الاستعمارية من العصاة •• والاشقياء ! وقد كان هذا الموضع يوما ما ، حصنا من حصون الدولة العباسية التي شيدها الخلفه المنصور وجددها من بعده الناصر لدين الله سنة ١٢٢١م ، فلما دالت الدولة العباسة وما بعدها من دول اللون الاصفر ، وغير الاصفر ، اتخذته الدولة العثمانية مخزنا للعتاد والاسلحة ، ثم أخلته لانشغالها في تلك الحرب ، وحاجتها الى السلاح ، وعند ذاك أصبح الطلسم الملاذ الذي كان يلوذ به الاشقياء تخفيا عن الاعين ، وهربا من وجه الجندرمة الذين كانوا يقومون بحفظ الأمن ، وتنفذ قوانين الحكومة وأوامرها يومداك • ثم نسفته السلطات العثمانية عند سقوط بغداد سنه ١٩١٨

□●□

ويلفظ البغداديون كلمة الطلسم ، بكسر اللام بعد شدها الى الطاء المكسورة أصلا ، وللطلسم كان ينسب الأشقاء أنفسهم ،



الطلسم ـ كان مأوى الاشقياء

فيقولون في ماهاتهم (احنه أولاد الطلسم ياب)[1] ويقصـدون بذلك انهم ال (خوش ولـــد) الشجعان الذين لا يرهبون الموت ويلوذون بالطلسم

ولم تأت ماهاة شقاوات بغداد بالطلسم اعتباطا .. فهو المحل الذي لا يستطيع أن يحل به ســـواهم ، وذلك لما كان يكتنفه من غموض وابهام . وبما كان يدور حوله من أساطير وألغاز ، فضلا عما كان يصوره له الشقاة للناس تصويرا يبعث في نفوسهم الرعب والخوف في زمن كان فيه (الطنطل) هو المهيمن على عقول السواد ، فانهم ما داموا في مأمنهم هذا فلا تمتد اليهـــم أيدي الجندرمة .. ولم يلجأ الاشقياء الى ذلك الا ليدفعوا عن أنفسهم شرة الفضول ، وحياة كهذه محوطة بالالغاز .. ألغاز النفس وألغاز الطلسم جديرة بالاعجاب ، وجديرة بالتسجيل أيضا !

---

(١) مصطلح بغدادي أصيل يطلق للمناداة على الوالد كقولهم يابه او بابه .. غير ان اولاد البلد يطلقونها على غير الوالـــد أيضا على سبيل المباهاة والاعتداد بالنفس

عصر الاشـــقياء ..

● ●

كانت الاحوال العامة في العصر الذي نحن بصدده في بغداد ، ماضيه قدما نحو الانهيار[1] وقد مست بغداد الى جانب ما مست به من ظلم الولاة الطغاة ، بضربات ماحقة من القدر أودت بحياة الالوف من رياحين المجتمع البغدادي سنة بعد سنة ، حتى انتشر الذعر وعم الهلع بانتشار المجاعة وهجوم الهيضـــة واستفحال أمر الطاعون ، وطغيان دجلة وغرقه أكثر من مرة لبغداد[2] .. وقد صمدت بغداد أمام هذه المحن بصبر دونه صبر أهلها الحمل تحت كابوس ذلك الظلم العثماني الرهيب الذي ما انفـــك يفرض الضرائب ويستلب الاتاوات في جميع أنحاء امبراطورية الرجل المريض .. وقد بلغ الظلم مداه أثنـــاء الحرب حين يئس (الباب العـــالى) من النصر فأصدرت الحكومة نقودا من الورق كتبت عليها تستبدل بالذهب بعد سنه من انتهاء الحرب واستعملت السياط في جمع (اللـيرات)

---

(١) من سنة ١٩٠٤ حتى سنة ١٩٢٤

(٢) وقعت هذه الحوادث خلال سنى ١٨٧٨ وما بعدها

الذهبة واستبدالها بالعملة الجديدة[٣] مما أثقل ذلك كواهل التجار والمستهلكين على حد سواء •

وبنتيجة هذه الكوارث والمحن برزت فئة من اهل بغداد وقفت في وجه السلطة بضراوة وعنف ، وعارضت اسلوب الحكم على طريقة خاصة استعملت فيها القوة والسلاح • ولم يكن لها من هم بادىء الامر الا تقويض دعائم ذلك الحكم الغاشم • لذلك فانها عمدت في عمليات السلب والنهب التي مارستها الى قطع الطريق بوجه القوافل الحكومية القادمة من الاستانه وهي تحمل رواتب الموظفين ، فاطلقت عليهم السلطات آنذاك لقب (اشقياء) استخفافا بامرهم ثم تطورت التسمية الى ما سوف نرى قريبا •

□◉□

ولقد كانت اعوام الحرب العالمة على البغداديين وغيرهم من سكان المدن يوسفية عجافا •• كما كانت لتلك الحرب سببا لظهور عدد اكبر من الاشقياء وذلك بتهرب الكثيرين من الخدمة العسكرية، ومن الاشراك في حرب طحون لم تكن للعراقيين فيها ناقة ولا جمل ، وجاء (السفر بر) ضغثا على ابالة ، فهرب كثير من البغداديين عن

---

(٣) لم يفت على ظرفاء بغداد وهم في تلك المحنة القاسية ان يسجلوا هذه الحادثة شعرا ثم صار غناء على كل لسان

انا المسيچينه انا   انا المظيليمة انـــا
انا الباعوني هلي   بالنوط والوعدهسنه

وجه الخدمة في صفوف (العساكر السلطانية) والجأهم ذلك الى الاختفاء عن اعين الجندرمه واصبحوا بالتالى من زمرة الاشقياء ..

ومن الاسباب الرئيسة في ظهورهم أيضا الحرب التي اندلعت نارها سنة ١٩٠٤ بين ابن سعود وابن رشد ، فقد كانت الحكومة العثمانية تشد من أزر ابن رشيد ، وقد حتم عليها موقفها هذا بأن تجهز جيشا كاملا وتسفره الى مواطن القتال في البادية النجدية ، وقد وقعت طامة تجهيز هذا الجيش على رؤوس العراقيين ، واهل بغداد منهم بصورة خاصة . فقد فقدوا في تلك الحرب خيرة ابنائهم اذ ماتوا جوعا وعطشا بسبب تلكؤ السلطة عن ارسال (الارزاق) والمؤونة اليهم .

ومما يصفع الحكم العثماني بالجبين ان أحمد فيضي باشا وكيل ولايه بغداد آنذاك ، قد اهتبل هذه الفرصة ، وأخذ يأخذ الاتاوات من أهالى بغداد مهددا اياهم بارسال أولادهم الى ساحة الحرب ، فجمع اموالا طائلة . وقد سمى البغداديون تلك الحرب (دگه ابن الرشد) والاتاوة التي جمعها وكيل الوالي (خاوة ابن رشد) وصارت على مرور الايام مثلا يضرب به من الامثال .

هذا وعند انتهاء الحرب العالمية بوقوع الاحتلال البريطاني وادارة دفة الحكم من قبلهم وبشخوص من ابناء مستعمراتهم من البلاد الاخرى .. عادت الشقاوة وفرضت نفسها على المجتمع وعلى السلطة المحتلة معا ولكنها جاءت في هذه المرة بثوب آخر ، بثوب طرزته الوطنية الصادقة بخيوط من اهابها الحر ، فان الحماس الوطني الهب مشاعر البغداديين

الى جانب اخوانهم ابناء الفرات ، فاشعلوا فتيل الثورة العراقية طلبا للاستقلال فكان الاشقياء في تلك الفترة يؤدون واجباتهم الوطنية باقلاق السلطات المحتلة واشغالها بشن الحملات على مراكز البولس الانكليزي ، والاغارة على مخيمات الجيوش المحتلة بين ليلة واخرى وسرقه العتاد والمهمات الحربية منهاحتى عمدت السلطات الى كهربة الاسلاك الشائكة التي كانت تحيط بتلك المخيمات والمعسكرات •

غير ان ذلك لم يفت في عضد الاشقياء ، فسرعان ما تدبروا الامر ، فكانوا يطفرون عبر الأسلاك بواسطة القفز بالزانة وهكذا حتى انتهت الثورة واسسب الامر للجيوش المحتلة غدراً و ••• تمثلاً !!

□◉□

أما كلمة (سقاوة) فهي من المصطلحات البغداديه الاصيلة وقد كانت ـ ولا تزال ـ تطلق على الاعمال التي يمارسها الاشقياء بالقوة والبطش •• غير ان واقع الحال ، يوحى الى شقاء الاشقياء والى ما هم فيه من بؤس وحرمان وقلق وخوف ، ومما كان يخفيه القدر من مفاجئات لا تخطر على بال ولا تقع الا في فحمة الليل••قبل ان توحى الى ما هم عليه من قوة وبأس في عراك الحياة وفي سبيل البقاء أيضاً••

واصبحت كلمة (شقاوة) بمرور الايام من المصطلحات المحببة التي نداعب بها بعضنا البعض فنقول مثلاً (منو يگدرله •• صاير

سقاوة) او (يابه اشدعوه شقاوة) الى غير ذلك من المصطلحات والتعابير المألوفة في مجتمعاتنا الشعبيه او في ندواتنا الخاصة .

□●□

ولقد أنجبت بغداد في ذلك العصر عددا كبيرا من الاشقياء ، ولا أظن ان حاضرة من حواضر الشرق قد انجبت مثل عددهم ، اللهم الا اذا استثنادمشق والقاهرة ، فان الحياةالعامةفيهما لا تختلف بشيء عما هي عندنا .. وممن اشتهر امرهم من الاشقياء في عصر الاشقياء عمران الشبلاوي وعباس السبع وطه بن الخازة وصالح بن الدهان ووحيد المصري وابراهيم الحوراني ومموديوالحاج شاكرالخياط وعباس السبعوأحمد فرداشوقدوري وابن عدكه وغيرهم .. وقد قضى معظمهم نحبه قتلا..ويعش بين ظهرانينا اليوم من شيوخ الاشقياء أناس أفاضل ، تركوا اعمال الشقاوة منذ زمن بعيد ، وقد تابوا[1] الى الله تعالى توبه نصحوحاً ، فانهم يؤدون الصلوات باوقاتها ويصومون رمضان ، ومنهم افاء الله عليه بنعمه فادى فريضة الحج .. ولا أراني بحاجة الى ذكر اسمائهم بقدر حاجتنا الى عفو الله تعالى وغفرانه .

ولكننا لو تأملنا حياة اى شقي من اشقياء بغداد ، وسبرنا غوره لوجدناه انسانا تفيض جوانحه بشتى احاسيس الحب والخير والجمال،

---

(١) تعففوا عن أعمال السلب والنهب

ومنهم من يغالى في احتساب المروءة لازمة من لوازم حياته[1]
أما العنف والعصان وما الى ذلك من الافعـــال التي تطعن صميم الانسانية • فانها من مستلزمات تلك الحياة الشاقة التي لا مندوحة منها في سبيل الحفاظ على الحياة ولو كانت بلماظة !•• وعلى العموم كانت أعمال الاشقياء مقصورة بادىء الامر على سلب قوافل الحكومة كما أسلفنا ، ثم تطور الحال الى السطو على دور الاغنياء والموسرين كلما اشتدت سطوة الحكومة وعززت قوافلها بأفراد مدججين من الجندرمة الغلاظ !•

---

(١) من أشقياء محلتنا طه بن الخبازة وقد ادركه صديقنا الاستاذ عبدالكريم العلاف حيث قال في كتابه بغداد القديمة « كان ابن الخبازة كله أعين ساهرة لحماية ابناء محلتنا الفضـــل وحراسة دورهم من الذين تعودوا السلب والنهب ومن أعماله مارواه لي الحاج جارالله الكرادي قال لي ان ابن الخبازة لم يكن شقيا جسورا فقط بل كان حارسا أمينا للبساتين التـــي كانت تحت تصرفنا وكان يقضى أكثر أيامه في البســـتان المسمى (الربع) الصرافية بعيدا عن أنظار الحكومة وذات يوم دعوته لتناول طعام الغداء عندي فقال بلهجته البغدادية (خليها غير وكت) لان الشط في حالة ازدياد ولابد من العسكر يأتي لمحافظة السداد وذهب ماشيا على السدة وهناك شاهد امرأة عائمة في الشط وهي قابضة على صبي صغير وهي تصــــارع الامواج الصاخبة فلم يكن منه الا والقى نفسه في الشط وانقذ المرأة والصبي ونجاهما من الغرق وفي تلك الساعة داهمه رجال الجندرمه وتصادم معهم وتوغل في البساتين ونجا منهم »

ولم يكتف شقاوات بغـــداد بأن يكونوا على جانب كبير من الرياضة وحسن الخلق وتجنب السطو على بيوت العزل والغرباء ، بل انهم كانوا يتحلون بأخلاق جميلة جذابة تتعلق بمشاركتهم الحياة العامة في مجتمعاتهم المحلية وعلاقاتهم التي يشدونها الى محلاتهم والى أبنـاء محلاتهم شدا محكما مما جعـل ابناء تلك المحلات يعتـــــزون بشــــقاواتهم ويبـــدلون الغالى والرخيص في درء الاذى عنهـــم واخفائهم لهم في بيوتهم عن أعين الجندرمة •• وخير تعليل تعلل به هذه الظاهرة الشعبية الاخاذة هو العداء الذي كان يضمره البغداديون وغيرهم للسلطات الاستعمارية العثمانية التي كان يمثلها الجندرمة • ومصدر هذا العداء هو ترديي الحالة الاقتصادية ترديا جعل الحكومة تتفنن في استنباط أســـباب فرض الضرائب الجديدة • وعلى هذا الاساس كان أبناء محلات بغداد يلتفون حول شقاواتهم لانهم وحدهم الذين كانوا يقفون وجها لوجه أمام السلطة ، وهذا ما يجعلنا في حل من جعل الاشقياء في مصاف الفتوة أو انها من بقـاياها على الاقل ، ذلك لو اننا استعرضنا أعمال الفتوة العربية والبغدادية منها بوجـه خاص لوجدنا انها لا تختلف بشيء عن أعمال الاشقياء الا بأنظمتها الخاصة وقواعدها المتينة

أهل الزود اطلعوا ثارت الچيلات [1] !

● ●

ولعل أقرب مثل نستطيع أن نسوقه في هذا المجال هو انشقيا من شقاوات بغداد كان يدعى (عباس السبع) قد اصطدم مع زميل يدعى (خماس بن شـــالة) في (مقابلة)[2] مع رجال الجندرمة بالقرب من جامع فرج الله في محلة بني سعيد ، وكانت تلك المقابلة رهيبة استعمل فيها الطرفان كل ماكان عندهما من قوة ، فلما نفد عتاد السبع وابن شالة التجئا الى الجامع واختفيا فيه ، غـــير ان القوة سرعان ما علمت بموضع اختفائهما فقبضت عليهما ، وبدلا من أن تذهب بهما الى الموقف أو الى (القلغ)[3] أردتهما قتلين ، وربطت كلا منهما بجواد يسحبه حتى ساحة الميدان ٠٠ غير ان هذا التشييع الجنائزي الشاذ لم يخل من نخوة احتدمت في صـدور البغداديين

---

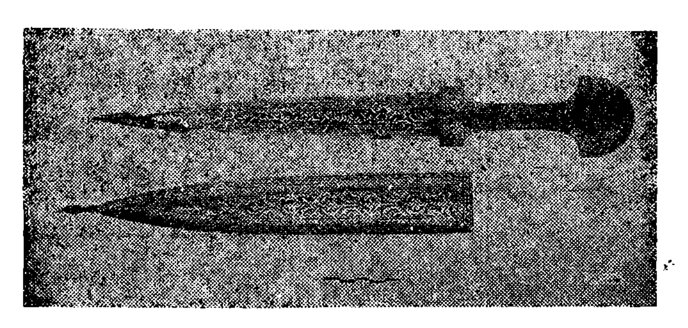
(١) مفردها چيلة ومعناها الطلقة وقد تعود المجتمع البغدادي في ذلك العصر على سماع الطلقات النارية كل ليلة

(٢) المقابلة مصطلح بغدادي كان يطلق على التصادم بين الاشقياء والجندرمة

(٣) القولغ مصطلح عثماني كان يطلق على مركز الشرطة

فقد خرجت (الأطراف) بشيوخها وشبابها بموكب عز نظيره في مواكب الشقاة الاسقاء ، وتلا ذلك مواكب البغداديات الذي تجلت فيه الروح البغدادية الاصلة عند جداتنا وعماتنا اللائي كن يشاركن الرجال هموم الحياة وأثقال الضرائب وهن يهزجن (أهل الزود اطلعوا ثارت الچيلات) •

وانها لاثارة جذابه لـ (أهل الزود) أصحاب الرجولة الصادقة والارومة الطيبة الذين يقارعون الحكومة المحتلة في اشخاص عساكرها من الجندرمة ، وانها لاثارة تضفي على المرأة البغدادية طابعا أصلا يعود بنا عبر التاريخ الى المرأة العربية ، وكيف كانت تقاتل جنبا لجنب مع أخيها الرجل •• وأظن ان هذه الاشارة العابرة الى المرأة البغدادية في مثل هذا المقام كافية اكتفاءها بأهل الزود وثقتها بهم •

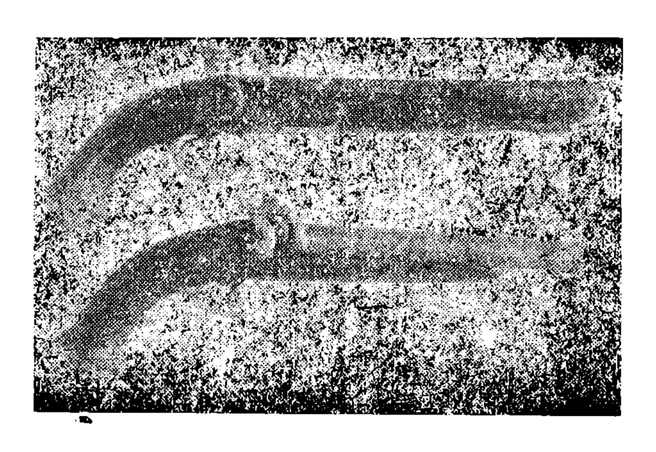


خنجر من الطراز القديم نقش عليه
(عبد بلا سلاح كالطير بلا جناح)

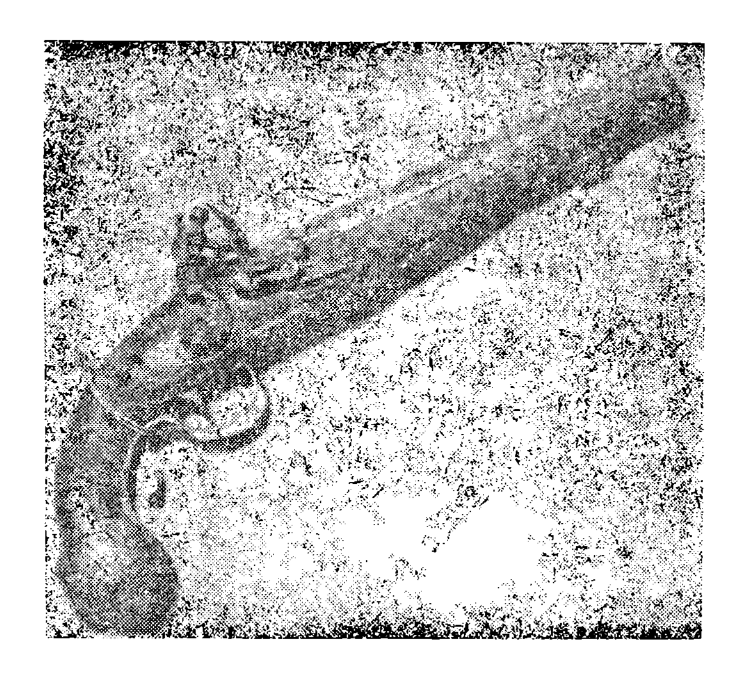
سلاح الجندرمة وسلاح الاشقياء

● ●

ولقد كان العداء قويا ومستحكما بين رجال الجندرمة والاشقياء ، وكان طابع هذا العداء القتل بسرعة ، والمبادرة الخاطفة الى أخـــذ الناصيه على الغرماء •• اذ لىس يسيرا على رجال الجندرمة أن يسقط كل يوم قتيلا منهم يتضرج بدمائه على الارض • كذلك لىس هينـا على الشقي أن يستسلم الى غريمه الجندرمة ليفتك به ويمثل بأشلائه



نموذجان للبشتاوة والقربينة



البـــــارودة

سريعا ومن غير محاكمه كما أسلفنا ، وهذا ما جعل هذا العـــــداء شخصا أكثر منه رسميا من جانب الجندرمة .. ولذلك فان القتول كانت تقع بين ليلة وليلة ، وتتسم كلها بسمة الاخـــذ بالثــــــار بالنسبة لجميع الغرماء ، ولا شأن للمحافظة على الأمن فيها . ومن الأمثلة التي نستطيع أن نسوقها بهذا الشأن ان احدهم وكـــان يدعى (صالح ابن الــدهان) ، كـــان قد حضـــر لزيـــارة أحـــد

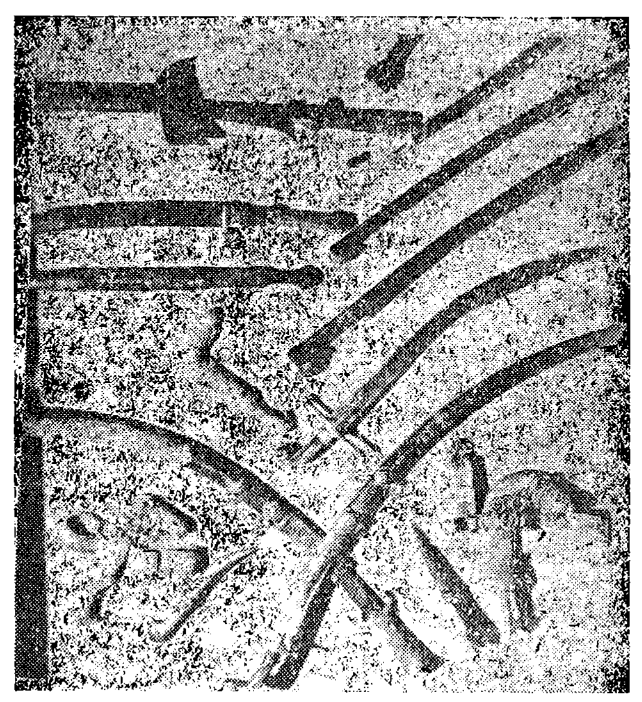
أصدقائه في محلة القراغول (الفضل) ، وعند خروجه صادف أن جاءت دورية الجندرمة برئاسة (السرعسير) فاصطدم الجانبان وقد دامت (المقابلة) أكثر من ساعه وروعت أصوات العيارات الناريه أهالى محلة القراغول وحبسوا انفاسهم من الخوف والهلع ، فلما نفد عتاد ابن الدهان فر هارباً يريد جانب الكرخ ، ومن المآسي التي لا تخطر على بال ، ولكن القدر يريدها أن تقع •• ان العادة التي كانت متبعه في طرق المواصلات النهرية هي رفع عوامتين من الجسر لئلا لعبور السفن الشراعية والبخارية •• ولم يكن ابن الدهان لعلم بهذا الروتين العثماني فلما وصل الجسر واستمر راكضا سقط في النهر من محل العوامتين المرفوعتين ، وقد اخرجت جثته في اليوم الثاني وعثر في جيبه على عشرين ليرة عثمانية ذهب و (شمعة !) و (قامه) •• مع مسدسين من نوع القرهداغ[1] وقد وقع هذا سنة ١٩٠٨

والظاهر من هذه (المقابلة) التي كانت بدايتها زيارة صديق، ولانية للسطو فيها ، ومفاجأة الجندرمة لابن الدهان وهو آمن في طريقه انها كانت من قبيل أخذ الثأر لا أكثر ، وقد كان ابن الدهان شقيا جسورا أوقع رجال الجندرمة في مآزق حرجة وقتل منهم عددا لا يستهان به طيلة عهده بالشقاوة •

□◉□

---

(١) نسبة الى منشئه بلاد الجبل الاسود (يوغوسلافيا)



مجموعة من السيوف والقامات والخناجر ويبدو بينها الخنجـــر (الكديمي) معقوفا على شكل رأس حصان في ثلاثة أشكال

وان عداء متمكنا كهذا قمين بأن يجعل كافة الغرماء في وضـع مسلح وعلى اهبة لما سوف يقع ، فما هي أنواع الاسلحة التي كان يحملها الجانبان ؟..

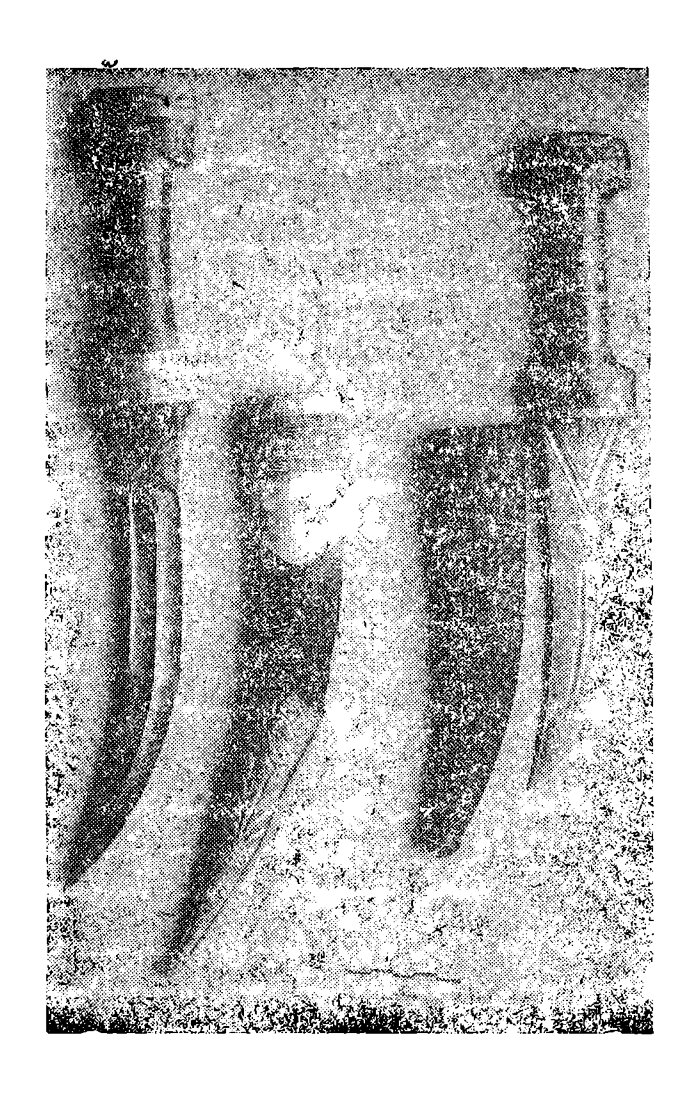
كانت السلطات العثمانية تزود جنودها وقواتها من أفـــراد الجندرمة بالبنادق وهي على أنواع ومنها (القباغلى) وهو ذو الغطاء

الموضوع على الفوهة ، والمارتنلي ويسميها البغداديون (الماطلي) ومؤنثه (الماطلة) •• وأما سلاح الاهالى ومن جملتهم الاشقياء فكان يتألف من (الشناوة) و (القربينة) وهذان السلاحان كانا بمثابة غدارات تحشى بالبارود وقطع الحديد الصغيرة (الصچم) فعندما يتحرك الزناد تندفع الاطلاقة وهاجة لتدخل قلب الجندرمة الذي كان عنواناً لحكم (قره‌قوش) في بغداد •

وقد تطورت هذه الاسلحة وكثرت أصنافها عند اعلان الدستور العماني في أواخر أيام الرجل المريض حيث أخذت المسدسات تنهال بمختلف أنواعها على الاسواق وأصبحت بمتناول الايدي ، ومن أنواع هذه المسدسات (القرداغ) و (البلدك) و (أبو المشط) و (التك) و (الورور) الخ ••

ومن اسلحتهم أيضا الخناجر ومنها (القزيسي) و (الاروپلي) و (الكديمي) ثم (القامات) و (السيوف) و (الچلتانات) ••

أما شقاوات جلنا فقد كانوا يحملون المسدسات ومنها (أبوالمشط) وتركوا حمل الخنجر الى السكاكين الشامية وفي طلعتها (ام الياي) ولنا منهم (أبناء طرف) وأصدقاء تركوا شقاوات الماضي واحترفوا الحرف وأصبحوا من ذوي المكانة المحترمة في الاوساط الشعبية لما يتحلون به من دماثة خلق ، واني اذ أذكر لهم هذا •• أذكر بذكرهم تلك الفترة الذهبة من حياة الانسان وهو لما يتخطى



نموذجان مختلفان من الخناجر

العشرين ، ولم يصل سوح المسؤولية والكفاح ، تلك الفترة التي كانت أغنى ما تكون فيه الحياة بالبهجة والمرح ، فتلهينا عن كل شيء، فلا نبرح مكاننا من (تخت) المقهى الا بعد أن تستوعب أذهاننا فصولا جديدة من معارك عنترة بن شداد أو أبي زيد الهلالي .. أو غيرهما من أبطال ملاحمنا العربية .

● ●

ابو زيد الهلالى والاشقياء !

● ●

وقد كان لشقاوات بغداد ولع أي ولع بالاصغاء الى ما ينشده (القصهخون) من أخبار تلك المعارك وما يصوره من أشكال تلك البطولات •• ولا غرو في هذا فانهم هم أيضا من أصحاب المعارك والبطولات ، واذا كانت مكارم الاخلاق قد طغت على شخصية أبي زيد أو عنترة أو غيرهما من أبطال الملاحم ، فان الشقاوات أنفسهم كانوا لا يجدون مناصا من التمسك بأهداب الأخلاق وخير مثال نضربه على ذلك ان الشقي (ممودي) اعتزم ذات ليلة الذهاب الى زيارة بعض أصدقائه في محلة باب الشيخ بعد أن أعلن توبته ، وعند عودته ووصوله بالقرب من مقابر اليهود داهمه رجلان وقد شهر عليه كل منهما مسدسا ولما أدرك انهما يريدان سلبه خلع عباءته ووضعها على الارض وأخذ يخلع ملابسهوهويقول ضاحكا « هذا هو شأن الدنيا يوم الك ويوم عليك فلما سمعه الرجلان وعرفاه من صوته أخذا يعتذران له ويقبلان يديه ، فصفح عنهما بعد أن أخذ عليهما عهداً بأن يتركا أعمال السلب وقطع الطرق على السابلة وأفهمهما انه عندما كان شقيا فان شقاوته كانت محصورة في مناوأة

الحكومة العثمانيـــة وليس في أعمال السلب والنهب ، اللهم الا اذا اقتضت الضرورة •• ضرورة الحيــاة ، فانه كان يسطو على دور الموسرين من الاجانب •

وكذلك كان يجد الاشقياء في الاصـغاء الى (القصـهخون) ما يثير في نفوسهم من غرائز أصيلة في الاحتساب الى المستقبل وهو بيد الله ، ولو ان عالماً من علماء النفس قد تطوع وسبر غور أي واحد منهم ، لوجد ان جوانحه وهو يصغي الى أشــعار (القصهخون) تفيض أبدا وفي كل لمحة من ملامح وجهه التعبيرية بالخير والجمال • ولراعه أن يجد حامل (البشتاوه) هذا أو متمنطق (الچلتانة) ذاك رجلا شهما وحساسا رقيقا •

□◉□

و (القصهخون) هو الآخر من بقايا نظام الفتوة ، وقد شهدته وأنا في الخامسة عشرة من عمري ، فرأيته رجلا قد تخطى العقـد الخامس بقليل ، وقد عقد على رأسه (چراويه) جعلها في لفتـين تشبهاً ب (الشقاوات) ولكنه كان يمتاز عنهم بالنظارة التي كان يضعها فوق أنفه بعد أن يشدها الى اذنيه بخيط رفيع من (السانتيم) فهو بحسابه استاذهم وبحسابهم شاعرهم •• وكان اذا هم بالتلاوة أو الانشاد شهر سيفا خشبيا واخذ بالانشاد على طريقة غنـــائية خاصة وذات ليلة وقد وصل من القصة الى أن أبا زيد قد قتـل في المعركة الحاسمة ألف ألف فارس ، استبد به الانفعال وبضربة من

ضربات سفه الخشبي حطم المصباح النفطي الذى كان معلقا فوق رأسه وساد الظلام ، فأخذ الحاج عبود صاحب المقهى يبحث عن الشمعة وهو ممسك بتلابيب القصه خون ويحمله مسؤولية تحطيمه المصباح فهو يريد ثمنه .. يحري هذا في كل ليلـة وفي كل مرة يتدخل أحد الرواد فدفع ثمن المصباح المحطم وينجو القصه خون .

وذات ليلة أيضا صادف أن أنشد القصه خون شعرا وقع فيـه أبو زيد أسيرا بيد أعدائه فدخل السجن ، وأنهى الفصل وأرجـا ئة القصة الى اليوم التالى ، غير انه عندما وصل الى البيت راعه أن يجد أحد (الشقاوات) الشبان ينتظره وفي يمنه خنجر مرهف الحد ويقول له مهددا

ـ ملا .. راح اتطلع أبو زيد من السجن لو لاع !

وعلى ضوء المصباح النفطي الذي كانت تنير به البلدية شوارع وأزقه بغداد فتح القصه خون كتابه ووصل ما انقطع من سياق القصة، وأخذ يتلو بصوت خافت كيف ان أبا زيد استطاع أن يثقب سقف (الزنزانة) وكيف حطم باب السجن وفر من سجنه باعجوبة .

وهنا تنفس الشقي الصعداء فقـد خرج أبو زيد من السجن وترك الملا الى داره المعتمة في آخر الزقاق وخياله أبدا مع أبي زيد .

« الموال »[1] في حياة الاشقياء

● ●

وكما عرف الاشــــقياء بحماة القوة والبطش واهتبال الفرص المواتية في الكفاح من أجل البقاء ، فقد عرفوا باصالة تذوقهم للفنون، شأنهم في ذلك شأن البغداديين جميعا ، ولا غرو ، فقد كان البغداديون

---

(١) من ألوان الشعر الشعبي المتأثر شيئا ما بالفصحى واول من نظم فيه أهل واسط وقد ذكر ذلك شهاب الدين في كتــــابه (سفينة الملك) وقال ان أول بيت منه ما قاله بعضهم

منازل كنت فيها بعد بعــدك درس
خراب لا للعزا تصــلح ولا للعــــــرس
فاين عينيك تنظر كيف فيها الفرس
تحكم وألسنة المـــداح فيهــا خرس

ثم انتشر الموال وذاع صيته عندما فتك هرون الرشيد بالبرامكة ومن بينهم جعفر البرمكي وأمر الرشيد بأن يرثى فرثته جارية بهذا الوزن وجعلت تقول نادبة يا (مواليا)

واختلف في سبب تسميته بهذا الاسم فقيل سمي به لموالات قوافيه بعضها ببعض ، وقيل سمي بذلك لان اول من نطق به موالي بني برمك وكان احدهم اذا نطق به ونعـــى قال يامواليا وهذا هو الاصح ـ فنون الادب الشعبي للخاقاني.

وما فتئوا مضرب المثل في الظرف والمل للطرب والعناية بالنظافة ، أما ولعهم بالسخاء والاريحة ، فذلك أمر لا نحتاج الى ما نستدل به عليه[1] • وهذه بلا شك وغيرها من الأوصاف الحسنى تفتح أبواب الازدهار للحياة فيكثر الظرفاء وتكثر بكثرتهم الفنون ، وان بلدا يجعل بحماله وحلاله من السقائين في مراتب الاريحة والظرف حـــري بان يسمو بكبرياء خلوده الى القمم الصاعدة شرفا ومجدا • وقمين بأن يجعل من فتانه الاشقاء في طلعـــة الــــواردين من نمـــير المكرمات اعذبها واسلسها وابردها على القلب الصادي • وهـــكذا تولع الاشقاء بالفنون ، وأحبوا الموال منها بوجه خاص •

□◉□

وقد كانت مجالس بغداد في العصر الماضي تعج بطائفة كبيرة من

---

(١) واقرب مثل على ذلك ما قيل عن ذي النون المصري انه قال من أراد ان يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد قيل وكيف ذلك ؟ فقال لما حملت الى بغداد رمي بي على باب السلطان مقيدا فمر بي رجل متزر بمنديل مصري معمم بمنديل دبيقي بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخـروط فسألت أهذا ساقي السلطان ؟ فقيل لا ! هذا ساقي العامة ، فأومأت اليه ان اسقني فتقدم وسقاني فشممت من الكـوز رائحة مسك ، فقلت لمن معي ادفع اليه دينارا ، فاعطاه الدينار، فأبى وقال لست آخذ شيئا فقلت له ولم ؟•• فقال انت أسير وليس من المرؤة ان آخذ منك شيئا فقلت كمل الظرف في هذا ؟

الشعراء والظرفاء الذين تفننوا في نظم الموال غير ان ادبنا الشعبي لم يسجل لاحد انتصارا في هذا الشأن كما سجل ذلك للملا جادر الزهيري ، فقد كان من فتان بغداد ، وقد توله بحبها فنظم فيها وفي شمائل أهلها الغر من الموالات التي لا تحصى ، غير انها تبعثرت مع الاسف المرير ، ولم يسعفني الحظ في الوقوف على شخصة هذا الشاعر الفذة وقد يكون من ابناء محلة المهدية في الفضل حيث يسكنها فخذ من عشيرة الزهيرات المعروفة في لواء ديالى ، ويا لست من ينبري من الادباء فيؤرخ لحياة هذا الشاعر الفتى البغدادي الذي جمع خصال الفتوة وآدابها في موال واحد لا يزال يترنم به البغداديون ولا احفظ له شيئا سواه[٢] فهو يقول

امعادن الود تظهر من معادينى
وحگوگ الاصحاب اوفيها معادينى
والصاحب اللي گرن دينه معادينى
من غيمة الريب جوّى لم يزل صاحبي
واللي شرب كاس خمر امودتي صاحبي
اكره صحب الذى يحچي گفا صاحبي
واللي يعادي صحيبي هو معاديني

---

(٢) لم يجد أهل بغداد تكريما لشاعرهم الا تسمية الموال بأسمه فهم ينسبونه له حيث يسمونه (زهيري) وقد عمت هذهالتسمية وشاعت في مدن الشمال واكرم به تكريما لشاعر بغداد

فأي موال زهيري جاش بمعاني الاخوة هذا ، واية خصال كريمة من خصال الفتوة العربية تكتنز فه ؟..

فلقد جاء في الأثر الشريف الناس معادن .. وقد فاخر الملا جادر الزهيري البغدادي بأن معادن الود تظهر من معادنه فهو الجوهر .. واذا كان ولابد من أظهار ما يتسم به من سمة الايثار فانه يتطوع بملء ارادته واختياره الى الوفاء بديون اصحابه الى جانب وفائه بالديون التي بذمته الى غيره .. وانه ساعٍ الى ان يجعل الجو الذي يكتنفه وصاحبه في حالة صحو من كل غيوم الريب والشكوك ، واعتزازا بحبه لاصحابه فان كل من يشرب من خمر مودته يصحو به ، ولا تعتريه السكرة وهذه كناية عن المغالاة في الحب .. وطبيعي ان نفساً كهذه جاشة بحب صديقها تكره مصاحبة الشخص الذي يغتاب ذلك الصديق ، وانه في حالة عداء دائما مع الذين يكنون لصاحبه العداء ..

□●□

ومن الموالات التي سمعتهم يترنمون بها ما قاله الشاعر الشهير عبدالغني جميل البغدادي وهو جد الاسرة الجميلة المعروفة في بغداد وأرومتها في محلة قنبر علي

انسك يا صاح روحك بالصبر علّها
عل الليالي تعود وترتشف علّها
ان چان طير السعد رفرف ولى علّها

وهناك نسي بيوتٍ للمجـــــد وعـــراف
ونچيد أهل الرده بمشـــذّبات عـــراف
يا حسرتي كوطروا عني الــولف وعراف
واليوم چم عام روحـــي ما برت علّهـــا

□●□

وقول الملا سلمان الشكرجي العبدلي البغدادي
نار الهجر بالضـماير زاد واطيهـــا
واعلى المعالي شمخ بالجور واطيهـــا
دار الحفت خلتي يارب واطيهـــــا
هيهات روحي ترد وتعــود لاچنهـــا
ونـساب فرك الولف لحشاي لاچنهـا
لو چـــان ربعي بهمي تهم لاچنهـــا
ما تحرگ النار الا رجل واطيهـــا

□●□

وما قاله الشاعر الشهير عبدالغفار الاخرس
آه على الطـف مــك لو يزور بســـنه
ويلوح الى من جبينك هل وضـحى بسنه
لا تظن غـيري مســـودن متبلى بســـنه
هايم بذكرك واحسب احساب بعدك وعـد
واهل كثر المدامع من صـــدودك وعـــد

واعـــد وماطل ولا توفى بـذاك الوعـــد
أرضى ولو صار وعـــدك كل يوم بســـنه

□◉□

ولا نقول جديدا ان الشاعر الشعبي الشهير الحاج الحاج زاير الدويج النجفي قد ابدع أيما ابداع باقتفاء أثر عبدالغفار الاخرس في موال سمعت الاستاذ محمد القبانجي يتغنى به على نغم (الابراهيمي) في احدى المناقب النبوية الشريفة ، واصبح على لسان جمهرة المغنين الهواة من أهل بغداد

من يوم فرگاك ما لـــذّن جفوني بســـنه
ولكثر شوگي تســعر هل دلـــل بســـنه
يا ترف حسنك يفوگ على البدور بســـه
من دون كل الخلگ ســفه علي شـــهر
حين رماني ولاســرار المــودّة شـــهر
انت عليك السنه تمضـــي بحسبة شـــهر
وآنه علي الشهر كـــل يوم منّه بســـنه

□◉□

ولقد يفتنك ان ترى بين الاشقياء شعراء ينظمون الموال والعتابة تأسيا وتشكيا من نائبات الدهر ، فهذا عمران الشلاوي القيسي الذي دوخ العثمانيين أمداً طويلا من الزمن ومن بعـــدهم البريطـــانيين حتى وضعت الحـــكومة المحتـــلة جائزة قدرهـــا عشـــرة آلاف

ربيـــة لمن يقبض علـــــه ، فاضـطر بعــــد ان تألبت عليـــه الايام وبلغ من الكبر عتياً ان يلتحق بابناء عمومته بني قس (الكروية) الضاربين على سفح جبل حمرين حيث قال وهو على فراش الموت[1]:

لمين جفـــن ســـــواعد المجـــد منـــي
يقنت بامر الجـــره واگـــريت بالمـــن
ناديت يا مـــزل الســـلوى مع المـــن
والدهـــر ياما جيوشـــه بالمراتب عجـب
حتى عجبهم من اطـــريح المـــوده عجب
يا رفگتي لـــــو متت ما هـــو علي عجب
خلي التگادير تاخـــذ حـــگها منـــي

وانا لنجد القوة والابداع والجناس في هذا الموال ، وكأننا نقرأ شعرا فصيحا ، وابدع من هذا تخلصه بعد الاستحارة بربه الكريم (يا منزل السلوى مع المن) الى اعترافه الواضح الصريح بصلابته في معارك القدر التي تغلب فيها واعطائه الحق للقدر ان يثأر منـــه

---

(١) من محفوظاتي القديمة وقد نسبه الى عمران الشبلاوي ابن عمه السيد عبدالعزيز القيسي الموظف في وزارة العدل وثبتـــه الاستاذ عبدالكريم العلاف في كتابه (بغداد القديمة) وذكره الاستاذ علي الخاقاني في كتابه (فنون الادب الشـــعبي) في جملة الموالات التي غناها الاستاذ محمد القبانجي دون انينسبه الى أحد مكتفيا بالاشارة الى ان القبانجي قد غناه على مقـــام (الناري) وبهذا صحت نسبته الى عمـــــران الشـــبلاوي

وذلك بقـــوله (يا رفگتي لو متت ما هو علي عجب •• خلي التگادير تاخذ حگها مني) •

وانه على ما نرى لس بكلام فل جزافا •• انه الشعور بالقوة الانسانه التي تتلاشى امام الموت وهي في عنفوانها العظيم ، وليس ادل على ذلك من انه بارح الدنيا بعد أيام قليلة من ترنمه بهذا المـــوال الدافق دماً وحياة •

وقـــد ذكر لي احد المسنين من ابنـــاء محلتنـــا ونحـــن نتحدث عن الموال والغناء ان شقياً كان يدعى ابراهيم الحـــوراني أوقع الانكليز في مآزق حرجة ، فلما قبضـــوا عليـــه قـــرروا اعدامه شنقا في ساحة الميدان امعانا في اذلال البغادة •• وعندما جيء بابراهيم الحوراني أنشد يقول

شقاوتي ضوجت خلـگي وعمـــري طال
من كثر قطع الجماجم والدما هطـــال
الحبس لي مرتبه والقيـــد الي خلخـــال
والجنّه يا علي مرجوحــــة الابطـــال

وفي هذه الخلجات الشاعرية الحارة نستطيع ان نتصور مدى تأثر الحوراني بابي زيد الهلالي ، عندما كان يصغي الى اســـاطيره وهو فتى في المقهى ، ومن الانصاف ان نذكر له هذا ، فقد قطع في نصف مواله هذا بـ (كثر الجماجم والدما هطال) على انه كـــان اسطوري النزعة في النظم •• ويؤسفني ان محاولاتي في الوقوف على

عير ذلك من منظوماته قـــد باءت بالفشـــل ، فلم يســعني الحظ على ان اعثـــر على غـــير هذه الاشـــطر من موال لم تســـعفه (الجنّبه) وهي حبل المشنقة على اتمامه[١] ، غير ان استجارته بالامام علي بن ابي طالب عليه السلام دليل على ما كان يعمر فؤاده من فتوة اوقفته فتى في وجه الاستعمار ، واعتلى خشبة الموت غير هــاب ولا وجل لوثوقه من نفسه انه ستأرجح في ارجوحه كانت على ما بــدا

غير انني عندما رجعت الى الموال وجدت ان الشاعر المشـــهور صفي الدين الحلي وهو ممن كتب عن الادب الشعبي عند المشارقة والمغاربة في كتابه (العاطل الحالي والمرتخص الغالي) يقول له وزن واحد واربع قواف على روي واحد ومخترعوه اهـــل واسط من بحر البسيط (صوتا) ومنهم من يسميها (بيتين) على الاصل ونظموا فيه اللفظ القوي الجزل في الغزل والمديح والصنايع على قاعدة القريض المعرب واورد لذلك مثـــلا هذا الموال في الغزل

ما بين اكناف راكس من حمى التثليم
شرقيّ مزوى بعازات القضا ترسيم
ودون آرام رامـــه يسبق التسـليم
نبل بشـــق المراير من لحاظ الريم

وما دمنا قد عرفنا ان من الموال ما هو مؤلف من أربعة اشطر ومادام موال الحوراني مؤلفا من اربعة أشطر ومن بحر البسيط أيضا وبما يحتويه من القريض المعرب (من كثر قطع الجماجم) فان باستطاعتنا تثبيت مواله على هذه القاعدة ولا حاجة بعد الى البحث عن الاشطر الاخرى لتؤلف موالا ذا سبعة أشـــطر

له ارجوحة الابطال !

□◉□

وما دمنا قد تحدثنا عن الموال فلنتبسط قليلا في حديث الغنـــاء ولس كأهل بغداد قوما مولعين بالغناء • وان تعلقهم بهذا الفن الجميل يعود الى عدة عصور خلت ويكفي بغداد فخارا ان يكون ابراهيم بن محمد المهدى وهو من خلفاء بني العباس أحد مغنيها • فقد حــدث هبةالله بن ابراهيم بن المهدى عن ابن خالته يوســـف بن ابراهيم الخراساني وكان من أصدق الناس ، قال كان الرشـــد يحب ان يسمع الى ابراهم فخلا به مرات الى ان سمعه ، ثم حضر معه سلمان ابن ابي جعفر فقال لابراهم عمك سد ولد المنصور بعد أبيك وهو يحب ان يسمعك ، فلم يتركه حتى غنى بين يديه شعر الاحوص

اذا انت ضـــا لمن ينهـــاك عاصـــة

واذ اجر الكم ســـادراً وســـى

قال ثم امر له بألف درهم ـ ثم قال له لىلة ، ولم يبـــق في المحلس عنده غير جعفر بن يحيى انا احب ان اشرف جعفراً بـأن تغنه صوتا فغناه في صوت صعه في طريقة الهل والشعر للدارمي

كأن صورتها في الوصف اذ وصف

دينار عين من المصـــريه العتـــق

فأمر له الرشد بمائة الف درهم •

وممن برز في الغناء في تلك العصور اسحاق بن ابراهيم الموصلي

فقد ذكره كثير فقال (لم يكن له في الدنيا نظير في الغنـــاء) • ويقول ابو حيان في كتابه (الامتاع والمؤانسة) بصدد احصاء المغنين في عصره (احصينا ونحن جماعة في الكرخ اربعماية وستين جارية في الجانبين ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الشـــبان البدور ، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة) •

وهذا الاحصاء الذى رقمته الذاكرة اوضح دليل على تهافت البغداديين على الطرب • وكانوا يعتبرون الغناء من فنـــون الادب ، كذلك كان الفضلاء والكتاب يأخدون انفسهم به حرصا على تحصيل أسالب الشعر وفنونه ، فلم يكن انتحاله قادحا في العدالة والمروءة ، فلا غرابة اذن ، اذا ورث الخلف هذا الفن الجميل عن السلف • فان الحضارة اذا استكملت نفوذها وهمنت بسلطانها على نواصـي الحياة انجبت أعلاما في كل مرفق من مرافق الحياة ، والغناء مرفق حي منها •

ومن عجب وقد دالت حضارة بغداد في العصر الذى نعيشـــه الساعة ، عصر الاشقياء ، انها بقت المنبع الثر في انجاب المثل التي بيضت وجهها كرباز وشلتاغ واحمد زيدان واضرابهم من اعـلام المقام العراقي ، ومتصدرى (چالغي بغداد) وهو من مفاخر ذلك العصر ، وسيظل أثرا خالدا من آثارها القديمة •

□●□

أما الغناء بالنسبة الى الاشقياء فانه القلب الذى كان ينبض بحب

الحياة عندهم وانني حين عايشتهم بحكم كوني (ابن طرف) وجدت ان الغناء هو السلم الصاعد الى تفهم خصائصهم الذاتيــة ، وحياتهم المضطربه بين الطلاسم والاسرار • ومن غريب ما عرفته عنهم رؤيه وسماعا ولعهم بـ (البهرزاوي) ولعاً يكاد يفرده عن سائر المقامات فلما سألت صديقا لي كان منهم عن سر هذا الولع قال ليس ثمة سر في هذا الا ان هذا المقام يغنى فيه الموال ، واننا ـ هكذا اشار صديقي ـ نجد في ألفاظه الدارجه على اللسان الشعبي من معـــان لانجدها في الفصحى ، فاننا نحب المـــوال لاصـــالته الشـــعبية ونحـــب (البهرزاوي) بصــــفه كونـــه عراقيا أصـــلا ، •• ثم أضاف صديقي واننا نحب الموال لاننا نتحسس في ألفاظه ومعانيه أنفاس ابي زيد الهلالي وكأنها تلهب في نفوسنا شواظ العزم على محاربه الواقع ، فكأن كلامنا يتحسس في قرارة نفسه انه هـــو ابو زيد ! ولما كان معظم الاشقياء ممن يتفاخرون في تمســـكهم باهداب الاخلاق الكريمة وبما يلابسها من حب ووفاء فانهم يغنـــون (البهرزاوي) عندما تشتد حاجة نفوسهم الى الغناء •

غير انني عندما رجعت الى (البهرزاوي) وجدت انه بانتمائـه الى فصل (السات) يدخل مسارب النفس في فيض من البهجـــة والفرح ، ومن أشد حاجه الى البهجه والفرح من الاشقياء ؟ ••• كذلك وجدت في انغامه اصالة عربية تجدع انف كل مفتر دساس

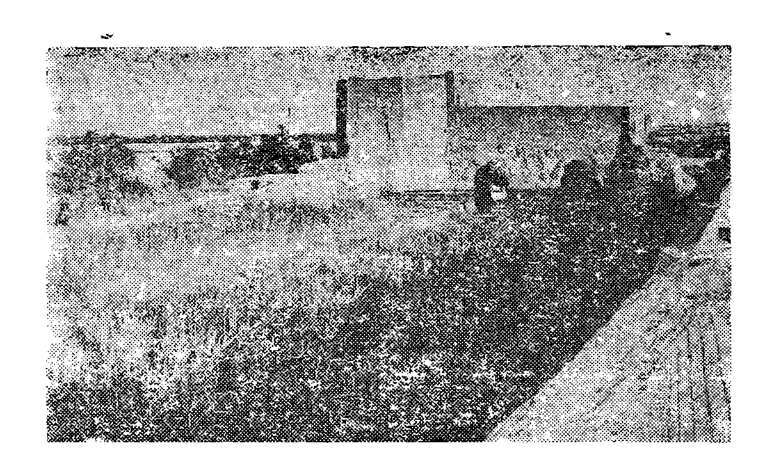
يحاول ان ينال من اصالته الشعبية ، وهذا هو الذى جعل الغنـــاء به خاصابالاعراس والمناسبات السعدة ، ويكفي البهرزاوي معزة للاشقياء أن ضبط ايقاعه الذى يلازم غناءه من وزن (اليگرگ) ومن انغـامه الابراهيمي والحسسي والمنصوري الخ ..

◉

يامن تصلي ع النبي تربح

●

واذا كان ختام كل حديث مسكا ، فليكن المسك الذى نضوع به اجواء حديثنا هذا ، الكلام عن شقاوات جيلنا ، فقد كان ذلك الحل آخر مظهر من مظاهر الحاة الشعبية الشقة التي تربطالجيل الحاضر بالجيل الماضي ، حث كان ابناؤه آخر من مارس اعمال الفتوة بآدابها ورياضتها ، فهم اليوم من شذرات المجتمع البغدادي ـ مثقفين وأميين ـ الذى تقف أمامه (الفتوة العربية) فخورة بما انحت ، حث لم تكن لهم في صدور شبابهم ما للماضين من مواقف تقتضيها المغامرات ، سوى ما كانت تقتضيه اسباب التفاخر والمباهاة . وقد شهدتهم وانا صبي ادرج ، يمارسون الفروسية ، ويلعبون الساس ، وكانت فروستهم تتجلى بأبهى مظاهرها في الاعاد حيث ينطلقون زرافات ووحدانا الى حلبة السباق بالقرب من الباب الوسطاني ويسمونها بـ (المنطرد) فستقبلهم هناك اصحاب الجياد ، فستأجر كل واحد منهم جوادا ويشتركون في سباق ودي لطيف حتى ينتهي بهم (الطراد) الى ساحة قريبة من باب المعظم حث يحلس الوجوه والشيوخ على أرائك شعبية هي الاخرى ، تسمى



باب الوسـطاني

يقع في الجهة الشرقية من جانب الرصافة وكان يسمى قديما باب الظفرية ـ باب الطلسم ـ أو باب الحلبة وهو الباب الوحيد الذى بقيت عليه كتابة عباسية وقد اتخذ منه اليوم متحفا للاسلحة •

بـ (التخوت) وينبري اعظم الجالسين مقاما فيمنح الفائز بقصب السبق جائزة نقدية ، ولصاحب الجواد جائزة أخرى ، وهكذا ••• ولما كان الصبيان ممن يتشوفون الى التظاهر بمظاهر الرجال ، فقد كانوا يمتطون ظهور الحمير بانواعها والشقي (الوكيح) منهم كان لايقبل الا الحمار الحساوي المخضب جبينه بالحناء • وقد انقرضت هذه العادة مع الاسف ولم يبق من آثارها شيء اليوم الا في بعض المحلات الشعبية التي لم تزل على سليقتها الاولى في الحياة•

ولقد شاهدتهم أيضا ـ واقصد بهؤلاء اقراني ـ يقومون بواجبات الخدمة في المناقب النبويه التي كان يقمها الموسرون من أبناء المحلات احتفاء بالمولد النبوي الشريف في الثاني عشر من ربيع الاول لكل عام وفي مقدم سهر رمضان المبارك وفي المناسبات السعيدة الاخرى ، كذلك لاتخلو مجالس العزاء من وجود هؤلاء الفتيان حث يضمخون اجواء هذه المجالس بطب العود والبخور ويتبارون في تقديم واجبات الخدمة للحاضرين من ابناء المحلة وغيرهم من ابناء المحلات الاخرى خصوصا في المجالس التي تقام احياء لذكرى الحسين عليه السلام

◉

وكما كان الاقدمون مولعين بالموال وغناء الموال ، فكذلك وجدت اقراني مولعين بـ (العتابة) وهو من انواع الشعر الشعبي وبحره من بحور الشعر (الوافر) واشهر الناظمين بها رجلان احدهما يدعى (حمادي الجاسم) من عشيرة الجبور) ، والثاني (عبدالله الفاضل) من شيوخ (عنزة) ثم ذاعت وانتشرت في بغداد وفي مدن الشمال والغرب ، وقاعدة نظمها على نوعين الاول يتألف من أربعة أشطر ثلاثة منها متحدة القافية • ومجنسة بالجناس التام شأنها في ذلك شأن الموال والشطر الرابع يختم بألف وباء ساكنة وتجيء زائدة على الوزن كقول بعضهم في الرثاء

تهزهز يالحد وانفض ترابيك

عزيز الروح هـل نايم ترابيــك
لفانه العـــد واعـــوني ترابيــك
تهــــه يا ترف واحنــه بعـــذاب

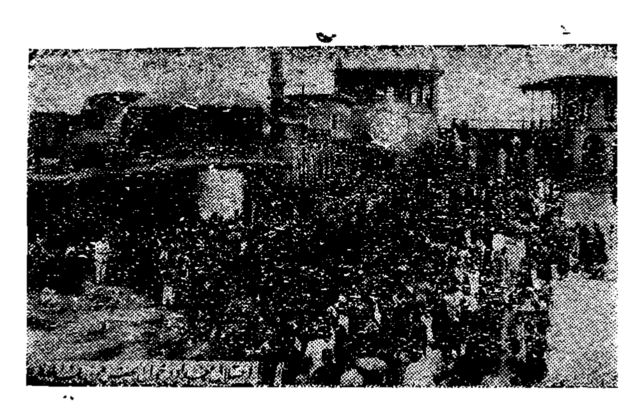
أما قاعدة الثاني فهي كقاعدة الاول غير ان الشطر الاخــير بختم بالف مقصورة واحيانا بالف ممدودة كقول بعضهم

ابات الليل جن بحشـاي چــانون
عفــه عل حاجبه مجرور چــــانون
يزرع الگلب ما يرويه جــــانون
كـــود آذار بســـنين الســـخا

●●●

واكثر ما كانت تغنى العتابة في حفلات الاذكار التي يقيمهـــا المتصوفة والمتشبهون برجال التصوف واصحاب الطرق الصــوفية في التكايا او المساجد او البيوت التي ينذر اصحابها باقامة (الذكـــر) في المناسبات المختلفة ، فكان فتان جيلنا هم الذين يغنون (العتابة)بانخراطهم في حلقة الذكر بعد الاستئذان من شيخ الحلقة • ويقوم اصغرهم سنا بواجبات الخدمة وملاحظه المجلس ، فاذا حدث لغط ما في احدى الزوايا، او ارتفع صوت بعض المتكلمين من الحاضرين ينبرى احد هـــؤلاء فنادى بصوت جهورى رخم

ـ تربح •• يا من تصــلي ع النبي تربح •• اشـــارة الى ان الكلام قد يؤثر على رجال الحلقة وان المقام محتشم ويوجب السكوت



باب المعظم قبل أن يهدم
ومكانه معروف وكان يسمى قديما باب السلطان وقد انمحى من الوجود ولم يبق الا اسمه ..

والاصغاء ...وهي طريقة شعبية اخاذة وتقابلها بالمجالس الاخرى عبارة .. صلي عالنبي

وعلى ذكر العتابة فقد ظهر في مطلع جلنا اناس يغنونها فيالمقاهي، وقد أخذني المرحوم والدي ذات ليلة من ليالي رمضان الى مقهى كانت تقام على طول سوق الهرج في الميدان ، وكان يغنى فيها المرحوم سعيد عكار والد المغني المعروف عدالجبار عكار الذى نسمعه مساء كل يوم خمس من محطة الاذاعة .

وكما امتاز الموال بالقوة والابداع في النظم ، كذلك امتـــازت العتابة بالرقة والحرقة معا خصوصا عند سماعها في ساعات الذكريات

اوفى لحظات التأمل الوجداني •

ولما كان من متممات الغناء في العتابة الربابة ، فقد تذرع بهـا (الغجر) في تجولاتهم وفي مضاربهم بين القرى والدساكر ، لانهم يجيدون العزف على الربابة •

وفيما يلي ثلاث نماذج من العتابة لعبدالله الفاضل مفاخرا بعشيرته عنزة قوله

هلي ما لبسوا خـادم سـمـلهم
او بچبود العـده بايت سهمهم
الناس انجوم وانه اهلي سملهم
وكل نجم الزها عشوى اوغاب

وقوله

هلي يا زهرة العربان منصوف
ولا جزوا ذبيحتهم من الصوف
هلي يا بيضة نزلت من الصوف
وكلمن ضاكها ما ظنه طـاب

وقوله

هلي شالو وخلوني بدرهـم
او خلوني چما الهـايم بدرهم
متى تضوى على لـلى بدرهم
او تعز الظلام أمن الضـوه

وللبيت الاخيرة قصه مؤثرة هى ان الشاعر وقد كان كما قلنا من شيوخ عنزة قد اصب في أواخر ايامه بالجذام ، وكان من عادة البدو ، اذا اصب احدهم بهذا الداء يتركونه وحيدا ويرحلون عنه الى مكان قصي لكي لاتمس احدهم العدوى . وهذه عادة بدوية متأصلة وهم يعمدون الى الرحل وترك المريض وحيدا لخلو البادية من وسائل الطب ، فلما تركوه بقي كلبه الى جانبه وابى ان يضعن مع الضاعنين وفاء لصاحبه المريض فقال الشيخ عبدالله مخاطبا الكلب الذي دمعت عناه واسمه شير

هالك شالوا على مكحول يا شير
وذبولك اعظام الصد يا سير
لو تحچي بكل الدمع يا شير
هلك شالوا على حمص وحما

ولولا ضيق المجال وخروجنا عن صلب الموضوع . لاوردنا نماذج أخرى من العتابة ..

وهكذا كانت الحياة تجري على غير ما تصبو اليه النفوس في ذلك العصر الغابر ولظلم سادته وعدوانهم على الشعوب الرازحة تحت حكمهم الاسود ، وكان سببا مباشرا لظهور لاشقياء .

ابراهيم بن عبدكه

◉

لم يجل بخاطر ابراهيم بن عبدكه وهو يعيش أيامه الرتيبة في بساتين وحقول قرية (العواشق) من أعمال قضاء المقدادية ، انه سوف يصبح علماً مبرزا من أعلام الاشقياء ويكسب صيتا داويا يجعله مضرب الامثال في أعمال البطش والقوة والعنف لولا مقتل أخيه عبد حسن في غضون سنى ١٩١٦-١٧ في تلك القرية • فوجب عليه أن يثأر له طبقا للتقاليد العشائرية الموروثة في بعض المدن وفي الارياف بصورة عامة ، فان الريف لايرحم القاتل ولابد من أن يقتل ، وهكذا وطد العزم على قتل (جواد) قاتل أخيه عبد ، وتأهب للامر •

وظل يتحين الفرص ويبحث عن جواد حتى عثر عليه في احدى محلات باب الشيخ ، فصوب على صدره النار وقتله في الحال ، ثم امتطى صهوة جواده وفر هاربا الى بعقوبه • ولكنها نهاية لبداية مأساة مروعة فقد جاءت الانباء من بعقوبة تفيد بان ستة من رجال الجندرمة قد قتلوا تتجه لمقابلة وقعت بينهم وبين ابن عبدكه ، ومنذ ذلك الحين أصبح غريما للحكومة تطارده في أي ملاذ يأوي اليه •• ولكنها كانت في كل مرة لاتظفر منه بطائل •• ثم تعددت جرائم القتل التي كان يقوم

بها هذا الشقي البائس ، حتى داهمه بعض الاشخاص المتنـــكرين في قريه العبارة ، وكانوا ثلاثة استطاع ان يقتل اثنين منهم بعد ان صوب عليهم النار ولاذ الثالث بأذيال الفرار ، وكان أحد هذين القتيلين نجم الزهو العزاوي الذى لفظ أنفاسه الاخيرة وهو يودع قصة استشهاده الى ولده الصبي سهل •• وقصة حرمانه من عطف والده ، وقد كانت القصة الاولى تتألف من كلمتين لاغـــير همس بهمـــا في اذن ولـــده (قتلني ابراهيم) وصعدت روحه الى السماء •

وطبيعي أن السلطة قد تأهبت للامر ، أكثر من ذي قبل فان من الاهانه بحقها أن يقتل رجالها الاقوياء على يد هذا الشقي المغـــامر الجرىء الذى ظل مختفيا عن أنظار الجدرمه حتى فاجأه المرض وهو في قرية (خرنابات) فلما علمت السلطة العثمانية بذلك أرسلت قـــوة كافة من رجالها الاشداء فقبضت عليه وألقت به في سجن بعقوبة تمهيدا لمحاكمته •• غير انه وبعد عشرة أشهر استطاع أن يفر من ســـجنه ليستأنف اعماله الاجرامية حتى سقطت بغداد على يد الانكليز سـنة ١٩١٨ •

وذات يوم قدم قطار كركوك النازل الى بغداد وهو يقل قـــوة بريطانية ويقل الى جانبها السياسة الانكليزية المعروفة (مس بيل) وعند وصول القطار محطة شهربان داهمه بعض الرجـــال المدججين بالسلاح وتغلبوا على القوة واسروا المس بيل ، وعند ذاك قدم ابن عبدكه فاستقبله الرجال بما يليق من استقبال رئيسهم ، فلما شـاهدت المس

بيل حفاوتهم به احتمت به فحماها وأوصلها الى حدود بغداد ثم تغـير الامر !..

ظل ابن عبدكه يتخفى عن أنظار حكومة الاحتلال وهي تلاحقه وتطارده ويشاء القدر أن يأتي اليه بمن يهمس في اذنه بان ابن عمـه محمد دارا قد قتل لثار قديم فوقعت الهمسة عليه وقع الصاعقة واعترته حمى شديدة اضطر بسببها وبسبب تضييق الخناق علـــه أن يفر الى المحاويل وفي ١٤ حزيران **١٩٢٤** وبينما كان طريح فراشه حضـــر ثمانية من رجال الشرطة واحاطوا به من كـــل جانب فلم يستطـــع مقاومتهم واسسلم للامر الواقع فقبض عليه وارسل مخفورا الى بغداد واجريت محاكمته وصدر عليه الحكم بالاعدام شنقا حتى الموت ، وقبيل تنفذ الحكم ظهرت مس بيل ، وتدخلت حتى خفف الحكم الى الاشغال الشاقة لمدة عشرين عاما ، وخرج من السجن سنة **١٩٣٦** بعد انقضى فيه اثنى عشر عاما .. وعطفت عليه الحكومة فعينته مراقبا للآثار في بابل .

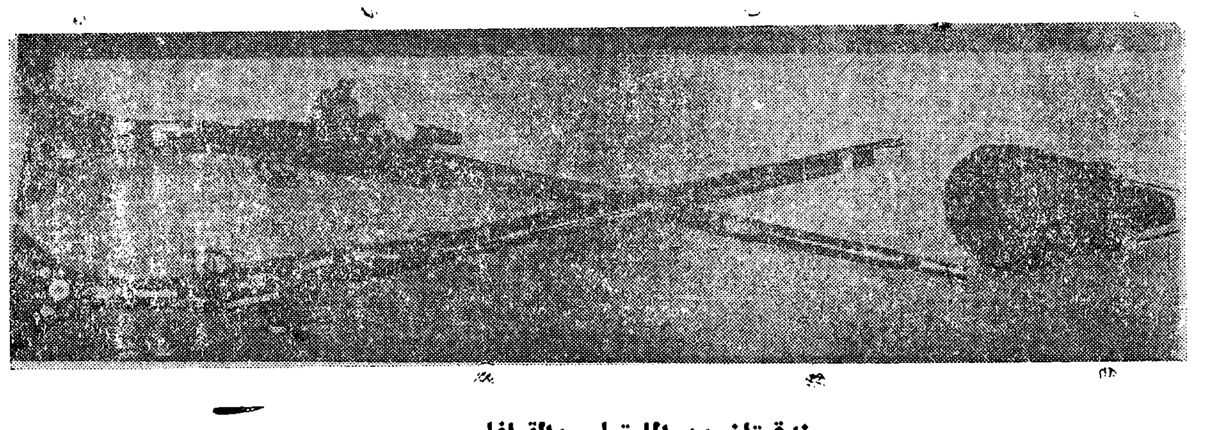
وسلخ في بابل ثمانية عشر عاما كلها خوف وقلق لايفهم ممـــا يحرسه من الآثار والكنوز الثمنة الا انها المهمه القفر ، لايكاد يخرج من داره الا ليدخلها فقد وهنت نفسه وطار قلبه شعاعا ، لانه كان ولاشك يعلم بقرارة نفسه انه لايزال (مطلوباً) وان كان يجهل لمن ؟..

وفي ٥ ايلول سنة **١٩٥٤** وقد بلغ سهل من عمره الثلاثين سنة قضاها يتيما تشتعل في قلبه قصة ابيه (قتلني ابراهيم) . وجـــد ان

الفرصة قد حانت لاطفاء هذه الجذوة اللاهبة في قلبه فذهب الى الحلة حيث يسكن ابن عبدكه واطلق عليه النار ثأرا لابيه واتماما لقصة يتمه التي طالت ثلاثين عاما .. ولما نقل ابن عبدكه الى المستشفى سأل عن قاتله فقيل انه سهيل بن نجم الزهو فارتجف وصرخ (لش احنــه ماتوافينا بعد ؟ آني قتلت ابوه وعمامه قتلوا ابن عمي ثم لفظ انفاســـه الاخيرة .

وهكذا اسدل الستار على حياة ابن عبدكه الذى اصبح مضرب الامثال في عالم الاشقياء .

ولم يقع اختيارنا لجعله مثالا للاشقياء الا لكونه آخر من قتــل من أشقياء الجيل الماضي



بندقيتان من المارتيلي والقباغلي

ملاحظة

١ ـ لقد وقعت بعض الاخطاء المطبعية التي فات تصليحها على المصلح مما لا تفوت على القارىء الكريم فيرجى المعذرة .

٢ ـ حقوق اعادة طبع الصور محفوظة لمديرية الآثار العامة